# الفصل الأول :
# خصائص النقد العربي والغربي

من الظواهر التي تلفت انتباه مؤرخ الثقافة العربية، أن مضمار الدراسة الأدبية مضمار يركز فيه أغلب الباحثين على عنصر المعلومات التي تشكل مادة البحث أو الدراسة دون الاهتمام بكيفية صياغة هذه المادة من الزاوية العلمية للوصول إلى الربط بين مختلف عناصرها من ناحية، والوصول إلى عدد محدد من النتائج من ناحية أخرى.

أو بعبارة أخرى هناك اهتمام واضح في عقل الباحث بالمعلومات عن أو حول الموضوع الذي يجعل منه مجالاً لاهتمامه دون الاهتمام بالمنهج أو الإطار العلمي الذي يجعل من المعلومات والموضوع عنصران لهما قيمة معينة في المجال الذي يعالجه الباحث أو الناقد.

إن هذه المشاهدة تجعلنا نطرح السؤال: هل هناك علاقة سببية بين طبيعة الثقافة التي ينتمي إليها الباحث، وبين اتجاهه نحو التركيز على المعلومات أو المادة الأدبية وحدها؟ أو نحو عدم الجمع بين عنصر المعلومات والمنهج في إطار واحد؟

هل هذه الظاهرة ، الفكر ـ سلوكية قائمة في ثقافة الغرب الحديثة؟ أو إنها قائمة في ثقافة الشرق العربي فقط؟ نحن نضع الإجابة في شكل فرض مؤقت فحواه: إن الباحث أو الناقد في ثقافة الشرق العربي يتجه عادة بسلوكه وفكره عند إجراء بحث أو دراسة أدبية نحو التركيز على المعلومات، وجمع وتكديس المادة الأدبية وعرض الوقائع الثقافية دون الوعي بإعطاء الأولوية للمنهج أو الإطار العلمي الذي يجب أن يمتلكه الباحث أو الناقد قبل جمع وسرد المعلومات عن موضوع الدراسة .



obeikandl.com

إن نصوص الدراسات أو البحوث التي يتبنى أصحابها هذا الاتجاه، تعد نصوص شبيهة جدًا بنصوص الصحفيين وليست نصوص باحثين أو دارسين، لأن لغة هذه النصوص ـ التي لا تستند إلى منهج ـ لغة عادية إذ لا تتضمن مفردات الفروض العاملة، أو أساليب التحليل، أو النتائج المحددة.

إن القارئ يجد نفسه في نهاية المطاف أمام عملية عرض وتكديس لنمط معين من المعلومات، بصرف النظر عمّا إذا كانت ذات قيمة أو عديمة القيمة، أو جديدة أو غير جديدة، لكنها بغير شك لا تهدف إلى إثبات أو نفي ظاهرة أدبية أو ثقافية معينة، بل تهدف إلى لفت الانتباه نحو الموضوع والمعلومات التي تشكل مختلف عناصره، وعلى هذا الأساس يتجه الباحث نحو اختيار موضوعه وتحديد عنوانه، وإعداد مصادر أو وثائق تمده بالمادة الأدبية اللازمة، دون الانشغال بمسألة المنهج أو الإطار العلمي الذي يجب أن يتوافر عنده، هذا التصور للبحث أو الدراسة أو ذاك السلوك يعبر ويعكس طبيعة الثقافة الخاصة، وطبيعة الثقافة العامة التي ينتمي إليها الباحث أو الدارس أو الناقد، وهي كما تبدو ثقافة ذات طبيعة تبسيطية لا يحتل العلم مكانة أساسية في تشكيل أو في صياغة عناصرها الفكرية.

إن أسلوب معالجة الموضوع، من حيث البدء بتكوين إطار علمي، ثم إعداد مصادر المعلومات، ثم صياغته صياغة منطقية أو موضوعية بوساطة الإطار الذي كونه الباحث أو الناقد، هو في اعتقادنا إحدى النقاط الجوهرية التي تفرق بين جانب من جوانب ثقافة الشرق العربي، وثقافة الغرب الأوروبي فهذه الأخيرة يعتمد فيها الباحث أو الناقد على وضع المادة الأدبية داخل إطار تقبله كل العقول، ومن بين عناصر هذا الإطار أسس التحليل الكيفي Analyse qualitatif أو التحليل الكمى Analyse quantitatif، أو التحليل الدلالي Analyse Sémiologie، أو التحليل البنائي Analyse structurale، أو التحليل النفسي Analyse psychologie، فضلاً عن معرفة شروط الروح أو التفكير العلمي، مثل شرط طرح سؤال يدور حوله البحث، وشرط إعطاء إجابة له مؤقتة في شكل فرض Hypothése وشرط اختباره بوساطة التجريب على النصوص التي بين يدي الباحث وشرط تحقيق نمط معين من النتائج . . إلخ.

ومعنى ذلك أن الفرق بين الباحث في حقل الدراسات الأدبية في ثقافة الشرق العربي وبين نظيره في ثقافة الغرب فرق في طريقة تناول الموضع، وفي طريقة التفكير، فالثقافة الأولى يكتفي فيها الباحث ـ في أغلب الأحيان بعرض المعلومات، وطريقة تفكيره لا تميل إلى الطريقة الموضوعية، باعتبار أن التفكير العلمي يحتل مساحة محدودة في عناصر بنائها المختلفة، في حين أن هذا التفكير يحتل في الثقافة الثانية مساحة واسعة وأساسية.

ولعّل هذا هو السبب الذي يجعلنا نفهم لماذا يعتبر الباحثين في ثقافة الغرب أغلب دراسات الباحثين في ثقافة الشرق العربي دراسات عديمة القديمة من الزاوية العلمية، ولا تمثل لهم سوى نمطًا من المادة أو المعلومات التي يمكن أن يستعين بها الباحثون المستشرقون ـ أحيانًا ـ في نصوص مؤلفات ذات صبغة معينة، تقدم للقارئ الغربي الذي يرغب في معرفة بعض الجوانب عن آداب الشرق العربي القديمة أو الحديثة.

والحق أننا لو تأملنا نصوص دراسات بعض الباحثين ذوي الصيت والشهرة الواسعة في ثقافة الشرق العربي لوجدنا أن طرق معالجتهم لموضوعاتهم في أغلب الأحيان شبيهة جدًا بطريقة الصحفيين من زاوية اللغة، ومن زاوية الخطوات المتخذة، فهم عاجزون عن التفكير بوساطة الروح العلمي (طرح سؤال البحث أو الدراسة، طرح فرض تفسيري له . . . إلخ) والدليل على ذلك أنك إذا سألت أحد هؤلاء الكتاب أو الباحثين ما المنهج الذي اتبعته في نص بحثك و دراستك الأخيرة أو قبل الأخيرة؟ لكان الجواب غير محدد، أو كان نمطًا من اللغو الشكلي أو الشعارات الزائفة.

هناك نجوم في ثقافة الشرق العربي ذوو بريق وصيت واسع في سماء الفكر النقدي أو الدراسات الأدبية تعتمد على نفس الطريقة السابقة في معالجة الظواهر الأدبية أو الثقافية أو الإنسانية، لغياب الفكر المنظم أو العقلانية العلمية التي تتيح للدارس أو الباحث أن يخطو خطوات تقبلها كل العقول في مضمار الدراسات الأدبية وغير الأدبية.

وعلى هذا الأساس نفهم أن خطوات طه حسين في دراسته الأدبية الصادرة عام 1926 المسماة "في الشعر الجاهلي" كانت أول دراسة علمية خرجت عن ما هو

مألوف أو عمّا اعتادت عليه عقول المثقفين في معالجة مثل هذه الموضوعات، والدليل على ذلك أنهم ثاروا عليه بعد ظهور الدراسة، كما ثارت معهم السلطة، التي رأت أنها ـ الدراسة ـ قد قادته إلى الشك في بعض جوانب التراث القديم.

والمشاهد أن العقول التي ثارت قد ركزت على المعلومات والموضوع ولم تركز على المنهج الذي تناول به طه حسين موضوع الشعر الجاهلي؛ إذ لو كانت طبيعة الثقافة التي ينتمي إليها المثقفون أو التي تنتمي إليها السلطة التي ثارت عليه في النصف الأول من القرن العشرين، ثقافة غير تبسيطية أو مركبة أو متعددة الأنظار والبناء، ليتيقنوا إلى النقلة التاريخية الكيفية التي أنجزها طه حسين في مضمار الدراسات الأدبية في ثقافة الشرق العربي، بواسطة الإقدام على تطبيق المنهج العلمي الديكارتي على الأدب بشكل يدعو للإعجاب والتقدير، ويجعل منه رائدًا في هذا المضمار.

لم يركز أحد على المنهج، ولم يدرك الكثيرون أن العلم هو المنهج وليس المادة الأدبية أو الموضوع الذي يدور حوله البحث أو الدراسة، ولو أدركت الأجيال المعاصرة لطه حسين واللاحقة له هذه الحقيقة، لكان هناك نماذج من الباحثين في هذا المضمار قد خطت نفس الخطوات السابقة وترسخت في ثقافة الشرق العربي ـ بمعنى ما من المعاني ـ بعض خطوات المعالجة العلمية في مضمار الدراسات الأدبية، لكن المشاهد في الواقع الثقافي منذ منتصف القرن الماضي حتى الآونة الحاضرة أن الباحثين يعانون من غياب التهيؤ الذهني العلمي في مضمار الدراسات الأدبية (انظر رأي شكري عياد، في دراسة يوسف بكار، أعمال المؤتمر الدولي للنقد الأدبي، القاهرة، 1996).

ومن العجب أن يأتي أستاذ وباحث معاصر في أيامنا هذه، هو د. سيد البحراوي، وينظر إلى قيمة دراسة الشعر الجاهلي، من زاوية ليست لها أساس موضوعي، أو منطق مقبول، فهو يعتبرها نموذجًا لتبعية ثقافة الغرب، لا نموذجًا لمنهج علمي يمكن الإفادة منه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بوساطة فهم واستيعاب خطوات طه حسين في معالجته لذلك الشعر، كي يحاول الباحثون استخلاص الدروس المفيدة منها في هذا الميدان.

لم يدر بخلد البحراوي أن الشرق العربي حين يرسل باحثًا أو دارسًا في بعثة إلى ثقافة الغرب، فإنه لا يريد من هذه الثقافة سوى المنهج، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن أغلب مثقفي الشرق العربي البارزين تلقوا العلم، أو أعدت برامجهم الدراسية على ضوء ما وصل إليه العلم الغربي، من تطور وتراكمات، فثقافة الشرق العربي كانت ومازالت تستفيد من مختلف منجزات هذا العلم في مجالات عديدة من مجالات الحياة الفردية والجماعية على مدى القرون الثلاثة الأخيرة.

إن تاريخ ثقافة الشرق العربي يدلنا على وجود أساتذة كبار في ميادين المعرفة المختلفة، قد أفادوا من الاتصال بثقافة الغرب بعامة والجانب العلمي بخاصة، ويدلنا كذلك على أن العزلة عن هذه الثقافة تجعلنا نقع فريسة للانغلاق على ثقافة الذات والتشبث بماضينا الفكري والمعرفي، كما تجعلنا أيضًا نعيش داخل إطار غير متآزر مع ما يحدث من تغير أو تطور في آفاق الفكر المعاصر.

إن المشاهد على بنية ثقافة الشرق العربي أنها تجمع في الحقيقة بين ثقافة نامية وثقافة متقدمة، الأولى مصدرها الثقافة التراثية والثانية مصدرها الثقافة الحديثة. هذا فضلاً عن أن بنية تاريخ ثقافة الشرق العربي ليست ذات طبيعة متجانسة واحدة، وهذا القول يعني أن ثقافتنا في ظروف تاريخية معينة تبدو مرتبطة بالثقافة الغربية ارتباطًا قويًا، وفي ظروف تاريخية أخرى تبدو مرتبطة بها ارتباطًا ضعيفًا نسبيًا، وفي الحالتين لم تكن معزولة عنها بمعنى ما من المعاني، والذي يحدد درجة الارتباط بها الظروف العامة للمجتمع واتجاهات حركة التاريخ.

وعلى هذا الأساس نفهم أن الارتباط ـ بمعنى ما ـ بالثقافة الغربية، هو أمرٌ موجودٌ وقائم فعلاً، لكن درجته وطبيعته تختلف باختلاف الشروط الاجتماعية والتاريخية التي تحيط به، وسيطرة نمط ثقافي على آخر في حقبة تاريخية معينة معناه، إما انغلاق الذات على ثقافتها، وإما اغترابها عن جوهرها المعرفي والحضاري، وسواء كان هناك ميول عند البعض نحو انغلاق الذات على ثقافتها أمام اتجاهات العولمة الغربية، أم دفعها نحو الاغتراب عن جوهرها بهدف التحديث أم التجديد، فإن الذي لا شك فيه أن هناك عناصر في بنية ثقافة الشرق العربي متداخلة مع بعض

عناصر من الثقافة الغربية، ويمكن أن يتأمل المرء مناطق مختلفة من فكره وسلوكه ومظهره، وسيجد أنهما من التشابك إلى درجة أنه يصعب على المرء أن يفصل أحدها عن الآخر

والدليل على ذلك أن المعرفة المنهجية أو العلمية عند أغلب المثقفين في الشرق العربي إما في واحد من علوم الغرب التي اكتسبوها في مؤسسات تعليمية هناك، وإما على طراز غربي في بلدانهم الأصلية. ومعنى ذلك أن أطرهم الثقافية تعمل في ظل مفاهيم ثقافة الغرب، إلى جانب مفاهيم أخرى تشكلت في ثقافتهم الشرقية العربية، وفي كل الحالات إننا نرفض نفي ثقافة الذات أو اغترابها، كما نرفض في الوقت نفسه الانغلاق على الذات والعزلة عن التطورات العلمية التي أصابت اليوم كل ميادين الحياة الإنسانية، ليس هناك من سبيل أمام الثقافة العربية سوى الإفادة من منجزات الثقافة الحديثة في مضمار العلم، لأن الباحث أو المثقف يجب أن يكون على بصيرة بأنه لا يريد من ثقافة الغرب سوى المنهج أو القواعد المنهجية الجديدة في خطوطها العامة ـ كما ألمحنا من قبل.

إن الاهتمام بمسألة المنهج يتيح له معرفة الخطوات والأساليب التي من شأنها أن توفر له في علاج موضوعاته الأدبية أو اللغوية، أو الثقافية درجة عالية من الموضوعية، موضوعية ملاحظة الظاهرة الأدبية وموضوعية النتائج، والموضوعية التي نقصدها هنا هي إضفاء الطابع العلمي على خطوات الباحث عند ملاحظة موضوعه، وعند تحقيق نتائجه.

ولعل البعض يتساءل لماذا الاهتمام بهذا الجانب من الثقافة الغربية؟ الجواب لأن المنهج هو العلم وليس الموضوع أو المعلومات التي يتشكل منها هذا الأخير. والعلم يهتم بالإجابة على السؤال: كيف نعالج الموضوع الذي بين أيدينا معالجة تقبلها كافة العقول والبيئات الثقافية؟ لا كيف نجمع مادة الموضوع أو كيف نكدس المعلومات أو الحقائق عنه؟

والإفادة من منهج أو مناهج ثقافة الغرب يتيح للباحث أو الناقد فرصة الانتقال من مرحلة المعالجة الصحفية المعلوماتية ذات اللغة الوصفية العادية إلى مرحلة

المعالجة الموضوعية ذات اللغة التفسيرية، أو بعبارة أخرى تتيح للباحث أو الناقد الفرد الانتقال من الإطار ذو الطابع الصحفي التبسيطي إلى الإطار المركب الذي يجمع بين المعلومات وبين المنهج في وقت واحد.

لكن الحديث عن المنهج والمعلومات في وقت واحد لا يعني أن المشكلة قد لاقت حلاً منطقيًا جذريًا، لأن نقل المفاهيم والقواعد المنهجية الحديثة من مصادر الثقافة الغربية المعاصرة لا يعد مقياسًا للإفادة من المناهج الحديثة أو مقياسًا لتطور أساليب الباحث أو الناقد العربي، إذ لابد من تمثلها وتوافر عناصر التفاعل معها لغويًا وثقافيًا وحضاريًا وهذا التفاعل يتجلى فيما يطرأ على منهج الباحث أو الناقد من تحول كيفي يظهر في شكل نمط من الاستقرار المنهجي والتنظيم في بناء الفكر وفي تماسك النظرة إلى العالم.

حقًّا إن هناك تحول منهجي قد ظهر في بنية الثقافة العربية المعاصرة في مضمار الدراسات الأدبية في عقد الثمانينيات، لكن المدقق في طبيعة هذا التحول يجد أنه تحول على المستوى الشكلي لا الكيفي، فقد ترك الباحث أو الناقد في هذا المضمار المناهج التقليدية جانبًا وتمسك بالمناهج الحديثة، لكن هذا التمسك ليس معيارًا كيفيًا بالارتقاء بمضمار الدراسات الأدبية، بل المعيار كما ألمحنا سابقًا يتمثل في مدى التفاعل الكيفي مع المفاهيم والمناهج الحديثة على المستويات اللغوية والثقافية والعقلية.

فالمشاهدة الدقيقة لأغلب نصوص الدراسات الأدبية أو النقدية الجديدة تؤكد لنا أن خطوات الباحث في معالجة الآثار الأدبية تبدو غامضة ومضطربة نتيجة اعتماده على مبادئ في المعرفة النقدية الحديثة غير واضحة المعالم في بنائه الذهني أو الثقافي.

إن هذه النظرة المعيارية لكيفية تلقي الباحث أو الناقد العربي لمناهج الثقافة الحديثة، هي السبيل الأوحد إلى تحاشي التورط في معيار التحول من الأسلوب الصحفي المعلوماتي إلى الأسلوب الموضوعي التفسيري. فهناك من ناحية بعض الباحثين الذين يرون في مجرد النقل لمفاهيم ومناهج الثقافة الغربية الحديثة صورة دقيقة لهذا التحول، ومن ناحية أخرى هناك باحثون يرون في التطبيقات الجديدة ميزة ثقافية جديدة، وكلا الرأيين لا يعد مقياسًا لهذا التحول الأسلوبي أو المنهجي، لأن

النقل أو التطبيق الحرفي في ذاتهما لا تتوافر فيهما بأي حال من الأحوال مقاييس التحول المنهجي للأسباب التي ألمحنا إليها سابقًا.

مجمل القول إن الباحث أو الناقد لا يريد من ثقافة الغرب سوى المنهج بمفهومه العلمي الواسع، وهذا المنهج يلزمه أسس ومفاهيم نظرية تحتم على الباحث أو الناقد أن يعرفها معرفة طيبة تتيح له أن يتأملها ويناقشها؛ لا ينقلها ويطبقها بطريقة حرفية أو آلية، لأن هذا السبيل يقوده إلى المحاكاة الذهنية العقيمة التي تنتهي بمجرد التطبيق أو النقل للوصول إلى درجة الصفر.

وعلى هذا الأساس يلزم الباحث أو الناقد أن يعرف الواقع الثقافي أو المناخ الفكري والحضاري الذي أحاط بظهور المنهج وأسسه النظرية أو المعرفية، فضلاً عن معرفة خطوات المنهج بدقة وتمثلها بصورة عميقة وضرورة الاطلاع على نماذج لتطبيقاته المختلفة، ويلزم كذلك عليه أن يجري التغييرات اللازمة على إطاره الفكري واللغوي والمعرفي التي تتلاءم مع طبيعة المنهج وطبيعة الثقافة التي ينتمي إليها.

ومن البديهي أن طبيعة الموضوع الأدبي أو الثقافي هو الذي يحدد المنهج، إذ ليس هناك منهج كالقالب المفرغ يمكن أن نصب فيه كافة الموضوعات الأدبية أو الظواهر الثقافية، ولكن هناك روح علمية أو شروط موضوعية عامة يمكن أن تتسع حتى تشمل طريقة المعالجة والخطوط العامة في الخطوات اللازمة لتناول الظاهرة أو المشكلة الأدبية أو الثقافية، ذلك مثل منهج اختبار الفروض، أو منهج الملاحظة التجريبية أو الملاحظة المنظمة للموضوع الذي يشكل اهتمام الباحث أو الناقد.

وهذه الروح العلمية أو الشروط الموضوعية هي التي يجب أن ينقب عنها الباحث العربي في مناهج الثقافة الغربية الحديثة، فعليه النظر والفحص للمنهج البنيوي الشكلي أو المنهج البنيوي الدينامي أو المنهج الأسلوبي أو التفكيكي، أو غيرهم من مناهج أخرى، وعليه أن يكتشف المنهج الذي يمتلك هذه الشروط الموضوعية أو الذي يتفق مع موضوعه.

لأن الباحث ينتمي إلى ثقافة نامية، وأول احتياجات هذه الثقافة هي التخلص من المنهج الصحفي المعلوماتي ذي اللغة العادية، والاعتماد على منهج أخص خصائصه

الطابع العلمي أو الموضوعي. فإذا تم هذا التحول في ثقافة الشرق العربي وأصبح كل باحث في مضمار الدراسات الأدبية أو الإنسانية قادرًا على تطبيق المنهج العلمي على الظاهرة موضوع البحث أو الدراسة، فإن ذلك يعني تحولاً في بناء الفكر والوعي على المستوى الكيفي لا الشكلي، ويعني أيضًا أن هناك ارتقاء بمعنى ما، قد أصاب إحدى عناصر بناء هذه الثقافة.

لا سيما وأن المعرفة العلمية وأساليبها المختلفة أصبحت سمة بارزة من سمات القرن الحادي والعشرين في ثقافة الغرب، في حين أن هذه المعرفة وأساليبها المختلفة تبدو محدودة المساحة في ثقافة الشرق العربي، وتبدو صورة هذه المحدودية في طريقة معالجة الباحثين أو النقاد لأعمالهم في مضمار الدراسات الأدبية أو النقدية، وفي عدم تخلصهم من الخواطر ومن الانطباعية، ومن الملاحظات العابرة، ومن استعمال مفردات غير دقيقة في دلالاتها اللغوية أو المعرفية، ومن عدم التركيز على كيفية الإفادة من المعلومات وكيفية صياغتها في إطار من الموضوعية.

إن حجر الزاوية في البحث أو الدراسة الأدبية أو النقدية أو الإنسانية في ثقافة الغرب هو الملاحظة العلمية، ووضع فرض أو فروض تفسر الموضوع الأدبي أو الظاهرة الأدبية أو الإنسانية ومحاولة اختبار هذا الفرض أو الفروض على النصوص التي بين يدي الباحث أو الناقد في حين أن حجر الزاوية في البحث أو الدراسة الأدبية في ثقافة الشرق العربي هو المعلومات وحشد المراجع أو المصادر لها من كل لون أو صنف.

إن الشيء الذي لا شك فيه أن نمط الثقافة وطبيعتها يسهمان إلى حد بعيد في صبغ طريقة الباحث أو الدارس في معالجة موضوعه، وفي تحديد أسلوبه وفي نظرته إلى مستويات الموضوع وتعدد شبكات علاقاته بميادين أخرى، ومن هنا قلنا بأن هذه الطريقة تعكس طبيعة الثقافة التي يرتبط بها الباحث أو الدارس، من حيث أنها تبسيطية أو مركبة أو نامية أو متطورة.

ومادام نمط الثقافة وطبيعتها هما اللذان يوجهان الباحث أو الناقد في أسلوب معالجة موضوعه، وهما نتيجة له من جهة أخرى، فالقول بأن الباحث أو الدارس العربي

في مضمار الدراسات الأدبية أو النقدية يعالج موضوعاته بلغة صحفية وحجر الزاوية عنده هو تكديس المعلومات، الأمر الذي يؤدي إلى عدم وجود قيمة لمثل هذه الدراسات، لأن القيمة التي تمنح لها، تمنح على أساس الطرق التي عولجت بها، فالدراسة تعد علمية باستنادها إلى منهج علمي، لا باستنادها إلى موضوع أو ظاهرة مهمة، فالدراسة التي تصنف الظواهر الأدبية أو الثقافية، وتتابع علاقاتها بغيرها من الظواهر، من أجل وصفها وتفسيرها دراسة لباحث ينتمي إلى الثقافة الحديثة المركبة؛ لأن تتابع علاقات الظاهرة الأدبية بغيرها من الظواهر، معناه أن الباحث يقيم بمعنى ما تآلفًا مشتركًا بين مضمار الدرس الأدبي ومضمار العلوم الإنسانية، ومعناه كذلك أن الباحث يهدف من وراء درسه إلى إطلاق عدد من التعميمات الواسعة النابعة من مناهج المشاهدة والاستدلال والفروض، ليحقق في النهاية نظرة عامة مجردة تستند إلى المبادئ الكلية والقوانين العامة.

ومعنى ذلك أن الثقافة الحديثة المركبة تنتج باحثين أو دارسين ذوو نزعة عقلية علمية، فأغلب الدراسات الأدبية أو النقدية التي تنتمي لهذه الثقافة تهدف إلى جمع المادة الأدبية وتنظيمها وتصنيفها وتفسيرها؛ بقصد التعرف على الأسس التي تحكم الآثار الأدبية من ناحية، وتوسيع وتعميق النظرية الأدبية من ناحية أخرى بوساطة اختبار صحة أو دحض الفروض التي يستند إليها الباحث أو الناقد في هذا النمط الثقافي، ويستمدها من الظاهرة الأدبية. ومن الإطار النظري الذي يستمد منه فلسفته الأدبية والعلمية.

وفي هذا الصدد نذكر دراسة شهيرة عن الرواية الفرنسية الحديثة قام بها الناقد والباحث الذائع الصيت لوسيان جولدمان، حيث استطاع تشكيل مجموعة من الفروض المستوحاة من تغير البنيات الاجتماعية وتغير البنيات الروائية، ومبادئ النظرية النقدية المعاصرة، ومعنى ذلك أنه لم يتجه نحو دراسة موضوعه بطريقة عشوائية، وإنما استند إلى فرض نظري يوجه نحوه جهوده الفكرية ونزعته التجريبية فإذا خلت الدراسة من الفروض أصبح عمل الباحث عقيمًا لا يقوده إلى نفي أو إثبات حقيقة معينة.

ومن هنا نفهم أن دراسة جولدمان لم تنهض على أساس تسجيل أو رصد لوجود

تغير في بناء الشكل الروائي، أو بناء الوسط الاجتماعي. وإنما ذهبت إلى صياغة فرض أو فروض نظرية تفسيرية مؤقتة، لماذا؟ لأن الباحث كان يدرك أن المشاهدة لظاهرة ثقافية أو أدبية معينة لا تصبح علمية، إلا إذا فسرت في ضوء فرض أو فروض معينة لذلك لم يقم بعملية تكديس أو سرد للوقائع الأدبية أو الاجتماعية عن الفترة التي يتحدث عنها (بداية القرن العشرين) وإنما وضع الفرض أو الفروض التي وضعها تحت محك الاختبار، وانتقل من التعميم غير المحقق إلى التعميم التجريبي عن ظاهرة التغير في بناء الشكل الروائي الفرنسي الحديث.

لسنا هنا بصدد إصدار رأي لجولدمان أو ضده، وإنما هدفنا أن نوضح كيف أن الثقافة الحديثة المركبة تتميز بإعطاء الأولية في الدرس الأدبي أو الثقافي أو الإنساني للمنهج، وكيف أن هذا المنهج يعكس بمعنى ما نمط البناء الذهني للباحث، ونمط البناء الثقافي الذي ينتمي إليه في وقت واحد، فهذا البناء ـ كما ألمحنا سابقًا ـ يتميز بسيطرة المعايير العلمية والعقلية على معظم عناصره المختلفة، نتيجة تطور العلوم بعامة، وانتقال المجتمع الحديث من مرحلة المجتمع الصناعي إلى مرحلة ما بعد الصناعي بخاصة، واعتبار المعرفة العلمية أساس البناء الثقافي والتقدم الحضاري.

وإذا ما انتقلنا إلى باحث شهير آخر في روسيا هو فلاديمير بروب، رأينا أيضًا أنه أعطى الأولوية في دراسته للحكاية الشعبية الروسية للمنهج الكمي والوصفي في الوقت معًا، وهذا النمط من الدراسات يعد طريق يوصل إلى إطلاق قضايا عامة تصل إلى درجة التعميم، فعن طريق التصنيف الذي قام به بروب اكتشف مختلف أنماط أشكال الحكاية وصاغها صياغة كمية وعلمية في وقت واحد. والتعميم هنا يعد وصفًا علميًا دقيقًا ومنظمًا للتتابع أو التواتر القائم في الحكايات الروسية.

فقد جمع الحكايات الشعبية وقام بتبويبها وكشف عن النمط الذي تترابط فيه ترابطًا كميًا، فضلاً عن قيامه بعملية كشف عم مختلف معاملات الارتباط التي تحدد العلاقة التي تصل بين أشكال الحكايات وبعضها، بمعنى أنه قد حاول التوصل إلى التواتر القائم بين العلاقات الشكلية الموجودة بين سائر الحكايات الروسية.

وقد تحقق الباحث من إيجاد رابطة معينة بين متغيرين من متغيرات أشكال الحكايات التي تتجانس في بنيات فنية معينة، وعلى هذا الأساس توصل بمعنى ما من المعاني إلى تحقيق فكرة القانون الذي يحدد العلاقة بين سائر أنماط الحكايات الشعبية الروسية، وهذا القانون هو غاية الباحث في الثقافة الحديثة المركبة.

حقًا إن محاولة التوصل إلى مبدأ أو قانون يفسر أشكال الحكاية الروسية تبدو نزعة ميتافيزيقية وليست علمية، لأن الأخذ بمبدأ واحد يفسر كافة أشكال الحكايات يعد علمًا أحادي النظرة لكننا لسنا الآن بصدد تقييم لعمل بروب، وإنما بصدد تأكيد أن هذا العمل لقي شهرة واسعة لا لأهمية الحكايات التي أجرى بروب عليها بحثه، وإنما لأهمية المنهج الذي عالج به هذه الحكايات، وسنعود للحديث عليه في موضع آخر من الدراسة.

وبالنظر للأمثلة السابقة يمكن أن نستخلص أن الباحث في الثقافة الحديثة يعطي الأولوية للمنهج لا لمادة البحث أو معلوماته.

وعلى هذا الأساس يمكن للقارئ أن يدرك أهمية الدراسة التي قام بها طه حسين عن الشعر الجاهلي في النصف الأول من القرن الماضي حين طبق منهج الفروض والتجريب على نصوص هذا الشعر، معطيًا الأولوية للمنهج، كما يفعل الباحثين في ثقافة الغرب، ومعلنًا عن بناءا عقلي تجاوز به حدود الثقافة النامية، وحدود كافة الدراسات الشرقية السابقة واللاحقة لعصره، ولعل هذا يجعلنا نذهب إلى القول بأن دراسته لم يكن لها نظير في مضمار الدراسات الشرقية في أوربا بعامة وفي فرنسا بخاصة، إذ أن طه حسين حين طبق منهج ديكارت على الشعر الجاهلي لم يكن أمامه نموذج فرنسي أو عربي يحاكيه بحيث يمكننا القول إن محاولته كانت محاولة فردية غير مسبوقة وغير مألوفة، ولم يحاول نفر من الباحثين في الشرق منذ عام 1926 إلى يومنا أن يستعين بمنهجه أو يحاكيه كما يحاكي باحثينا مناهج بارت وجاكبسون، وجولدمان، وتدوروف وغيرهم.

ولم يدرك الباحثين أو النقاد في عصر طه حسين أو الباحثين والنقاد في عصرنا الراهن أن دراسته كانت ومازالت أول دراسة علمية تطبق على الأدب. حقًا لقد ظهرت



obeikandi.com

في عقدي الثمانينيات والتسعينيات دراسات تطبق مناهج ذات طابع حديث أمثال دراسات كمال أبو ديب، وعبد الله الغذامي، وعبد السلام المسدي ومحمد عبد المطلب، ومحمد برادة وغيرهم، لكن أغلب هذه الدراسات فقدت خصائص المنهج العلمي أو شروط الروح العلمية للأسباب التي سنشير إليها في موضع آخر من الدراسة، أما الآن فيكفي أن نقول إن الخطأ الذي وقع فيه الباحثون أو النقاد المعاصرون لطه حسين أو المعاصرون لنا الآن هو إنهم لم يقرأوا منهجه في الشعر الجاهلي، إنما قرأوا المعلومات أو المادة الأدبية التي وردت في الدراسة، وركزوا عليها اهتمامهم. حتى أصبح هذا العمل يمثل في نظر المثقفين في الشرق عملاً يتخذ صاحبه موقفًا سلبيًا من التراث لا عملاً يمثل نقطة تحول في تاريخ الدراسة الأدبية العربية من المعالجة التقليدية ذات اللغة الصحفية، إلى المعالجة العلمية ذات اللغة التفسيرية، التي تبرهن للقارئ على إفادة طه حسين من وجوده في بيئة الثقافة الغربية.

تلك الإفادة التي أصبحت نادرة في الآونة الحاضرة، فقد ذهبت مئات البعثات أو مئات المئات إلى فرنسا ولم نسمع أو نعرف اسم باحث عاد من هناك في العقدين الآخرين واستطاع أن يبرز في بحوثه أو في دراساته كيف استفاد من المنهج العلمي أو من أساليب البحث الحديثة هناك؟

لقد عرفنا أثناء وجودنا هناك في الفترة ما بين 1970 – 1980 مئات الباحثين أو الدارسين القادمين من الشرق، كان أغلبهم في عزلة تامة عن مصادر المعرفة العلمية التي يستقي الباحث من الاحتكاك بها مفاهيم وقواعد البحث الحديث مثل المدرسة التطبيقية العليا أو مركز الدراسات الإنسانية أو مركز علم اجتماع الأدب . . إلخ.

خلال هذه الفترة لم نسمع بأبحاث استفاد أصحابها من وجودهم في بيئة ثقافية حديثة، كان كل هم أصحاب هذه البحوث أن يترجموا نصوص بحوثهم من العربية إلى الفرنسية، أما الأستاذ المستشرق المشرف فهو غالبًا ما يكون في عزلة عن تطور المفاهيم والنظريات الأدبية والنقدية الحديثة، وغالبًا ما تكون اتجاهاته شكلية، وملاحظاته على البحث تدور في أغلب الأحوال عن اللغة الفرنسية عن تركيب الجملة واختيار الكلمة لا عن المنهج أو المعايير العلمية.

وخلال هذه الفترة السابقة في الجامعات الباريسية لاحظنا في مكتبة السوربون بقسم الرسائل وجود عدد محدود من الرسائل استفاد أصحابها من معايير أو أساليب البحث العلمي الحديث. نذكر من بينهم: محمد برادة، طاهر لبيب، سمير حجازي، موريس أبو نادر، محمد أيوب، والمنصف عاشور.

حقًّا إن الجامعات الباريسية قد عرفت الباحث والناقد الدكتور أحمد درويش، حيث أعد رسالة عن الشعر العربي الحديث وأشرف عليها المستشرق الفرنسي المعروف أندريه ميكل، لكن هل درويش استفاد من ثقافة الغرب الحديثة، هل استفاد مما هو جوهري وأساسي؟ والجوهري بالنسبة لنا كباحثين قادمين من ثقافة الشرق، هو معايير وأساليب البحث العلمي الحديث؟ الجواب على هذا السؤال سنؤجله إلى موضع آخر من الدراسة، عند الحديث عن مشكلة المنهج في النقد العربي.

أما الآن فنكتفي بالقول بأن الطاهر لبيب استفاد من مبادئ ومنهج جولدمان في تطبيقاتها على الشعر العذري عند العرب، ومحمد برادة استفاد أيضًا من نظرية وأعمال جولدمان في تطبيقهما على دراسة محمد مندور أو تنظير النقد العربي، أما نحن فقد استفدنا من أساليب ومفاهيم مدرسة بوردو التي أرسى قواعدها روبير إسكاربيه من ناحية، ومفاهيم ومنهج جولدمان من ناحية أخرى، ومفاهيم وأساليب العلوم الإنسانية من ناحية ثالثة، وقد تجلت مظاهر هذه الإفادة في الدراسة التي نشرناها بالفرنسية في باريس في عام 1979 بدار نشر maisonne vue et la rose تحت عنوان littérature et societé وتعد هذه الدراسة واحدة من الدراسات التي تجمع بين المنهج التجريبي من ناحية ومنهج النقد الأدبي من ناحية أخرى، فضلاً عن الاستعانة ببعض خطوات المنهج البنائي الدينامي الذي أرسى قواعده جولدمان في مضمار علم اجتماع الأدب.

ويجب الاعتراف بأن هذا المنهج الذي طبقناه على الأدب العربي في مصر في الفترة من بداية حرب 67 إلى نهاية حرب 73 لم يستقر بناؤه ويتطور بالصورة التي جاءت في الكتاب المشار إليه إلا بعد مرحلة من المعاناة والقلق.

فقد كانت ثقافة الشرق العربي التبسيطية تسيطر على سلوكنا في بداية مرحلة الدكتوراه، وكان المشرف على الرسالة في ذلك الحين هو الأستاذ أندريه ميكل،

وكنا قد قطعنا معه شوطًا لا بأس به وكان عادة لا يبدي أية ملاحظات منهجية، بل كانت ملاحظاته في أغلب الأحيان ـ كما المحنا من قبل ـ تدور حول اللغة وبعض المسائل الشكلية.

والحقيقة أن النصف الأول من الرسالة قد اعتمدنا فيه على منهج أو لغة الصحفي الذي يركز على المعلومات والوثائق التي استمد منها هذه المعلومات، وكنا نقوم بترجمة الأجزاء التي ننتهي من كتابتها، ونعيش في عزلة تامة عن المؤسسات العلمية أو التعليمية التي يمكن الإفادة منها بصورة مباشرة أو غير مباشرة في ميدان المنهج، كانت ثقافة الشرق العربي تتحدث في سلوكنا وخطواتنا في معالجة الجزء الأول من الرسالة، إلى أن ساهمنا يومًا بالحضور في حلقة دراسية في مركز علم اجتماع الأدب الذي يشرف عليه الأستاذ جاك لنهاردت الذي حل محل جولدمان بعد وفاته، وسمعت أثناء حضوري ما معناه أن العلم هو المنهج وهو الأساس الذي ينهض عليه البحث أو الدراسة.

جذبت انتباهنا هذه العبارة وظلت عالقة في الذهن عدة أيام إلى أن التقينا بالمستشرق الفرنسي الشهير جاك بيرك بمكتبه في الكوليج دي فرانس بباريس وسألناه: هل حقًا إن العلم هو المنهج؟ أجاب: إن 90٪ من هذا القول صحيح.

وعلى هذا الأساس اكتشفنا أننا لم نستفد من وجودنا في بيئة ثقافة الغرب واكتشفنا أيضًا أن ثقافة الشرق قد أنتجت فينا سلوكًا وفكرًا جعلنا لم ندرك منذ البداية ماذا نريد من ثقافة الغرب.

اعترف أني مزقت ما حررته طوال عامين، وبدأت من جديد، وكانت البداية هي الدراسة ومتابعة المحاضرات والحلقات الدراسية في مركز دراسات العلوم الإنسانية، ومركز علم اجتماع الأدب، ومركز الدراسات النفسية الاجتماعية والكوليج دي فرانس، فضلاً عن العكوف على قراءة أشهر الكتب التي صدرت في الفترة ما بين 1974 و 1978 في مضمار النقد الأدبي، واللسانيات، والعلوم الإنسانية، ومناهج البحث العلمي، وكان ذلك أول الطريق.